

ممانوئيل كويبايتش :

عبد الحميد الكاتب ورسائله «الو الكاتب»

نميلة من « الشرق » ، السنة ٥ ، الأعداد ١-٤ ،

حزيران - ايلول ، ١٩٧٤ ، ص ٨٥ - ٩٨

عمانوئيل كوبليفتش  
عبد الحميد الكاتب ورسائله  
«الى الكتاب»

**العقد الفريد** (٣) قوله : «وكاتب يزيد بن عبد الملك عبد الحميد بن يحيى ، ثم لم يزل كاتباً لبني امية الى ايام مروان بن محمد وانقضاء دولة بني امية» . ومن المعروف ان هذا الخليفة حكم بين سنة ١٠٢ و ١٠٥ هـ (اي بين ٧٢٠ - ٧٢٤ م) . وفي رواية اخرى نقلها ابن خلكان (ص ٣٨٧) : «وشيخه في الكتابة سالم مولى هشام بن عبد الملك» ، اي انه تتلمذ في ديوان الخليفة هشام الذي حكم من سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) الى سنة ١٢٥ (٧٤٣ م) . وتقول رواية اخرى انه اتصل بمروان بن محمد في العراق قبل تسنمه الخلافة ثم خدمه كاتباً طيلة ايام خلافته ، حتى تغلب بنو العباس على مروان وقضوا بذلك على الدولة الاموية .

كان الخليفة مروان يعتمد على كاتبه عبد الحميد بن يحيى كثيراً ، ثقة منه بمهارته وولائه واخلاصه . ويحكى ان الخليفة لما اتضح له ان سلطانه صائر الى الزوال عرض على عبد الحميد ان ينتقل الى اعدائه العباسيين لينجو بحياته وليخدم الدولة العباسية في ديوانها ، الا ان عبد الحميد رفض هذا الاقتراح وآثر أن يقتل مع صاحبه على ان يتخلى عنه يوم الشدة ، وفعلوا قتل مع مروان في مدينة ابو صير بمصر في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ .

وكان ابو جعفر المنصور يقول بعد انتقال الحكم الى بني العباس : «غلبنا بنو مروان بثلاثة اشياء :

يعتبر عبد الحميد الكاتب احد مبتدعي الاسلوب النثري العربي وبالاخص مبتدع اسلوب الرسالة الأدبية ، وتعتبر رسالته «الى الكتاب» اهم اثر وصل الينا من مؤلفاته وان لم تكن اطول رسائله .

وقبل التحليل لنص الرسالة ، نورد لمحة عن حياة عبد الحميد مع التطرق الى بعض المسائل المتعلقة به .

#### حياته

هو ابو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، عاش في اواخر عهد بني امية في القرن الثاني الهجري . وكان على ما يبدو فارسي الاصل ، وكان مولى العلاء بن وهب العامري من بني عامر بن لؤى من قريش . لا نعرف عن حياته الا معلومات قليلة وافانا بها ابن خلكان في كتابه **وفيات الاعيان** (١) والجهمشيري في كتابه **الوزراء والكتاب** (٢) .

والظاهر انه ولد في مدينة الانبار في العراق ، وكان في حداثة معلم صببية في مدينة الكوفة ، وفي رواية اخرى يقول ابن خلكان ان مسقط راسه في الشام .

وتختلف الروايات عن بداية ممارسته الكتابة . فمن جهة نجد في رواية نقلها ابن عبد ربه في كتابه

(١) **وفيات الاعيان** ، طبعة بولاق ، د٠ت٠ ج٠ ١ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٢) **كتاب الوزراء والكتاب** ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٨ ، بتحقيق الاساتذة مصطفى السقاء وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، ص ٧٢ - ٨٣ .

(٣) طبعة القاهرة ، ١٩٤٤ ، مجلد ٤ ، ص ١٦٥ .

بالحجاج وبعمد الحميد بن يحيى الكاتب . والمؤذن  
البعليكي» (١).

وكان ولده اسماعيل كاتباً ماهراً نبيلاً معدوداً في  
جملة الكتاب المشاهير (٢).

### مكانته بين الكتاب ودوره في نقل الدواوين

كان عميد الحميد أحد هؤلاء الموظفين الكبار من أبناء  
الفرس والروم المقيمين بـ «كتاب» والذين خدموا خلفاء  
الدولة الإسلامية وولاتهم في أعمال مملكتهم من أيام عمر  
ابن الخطاب فصاعداً وساعدوهم على بناء الجهاز الإداري  
للمملكة ، مستفيدين بذلك من الخبرة الإدارية والمالية  
المتوفرة في مملكة الفرس الساسانية من جهة وفي مملكة  
الروم من الجهة الأخرى . وفي هذا الصدد قال أبو  
اسحق إبراهيم بن محمد الاصطخري (٣) ، وهو من أئمة  
علم الجغرافيا عند العرب : «وإما من يصلح من الفرس  
للدواوين من الكتاب والعمال والأدباء فإن منهم عبد  
الحميد بن يحيى ، وكان له في بني أمية ولاء ينسب  
اليهم ، وكان من كتابته واستقلاله ما اغنى عن ذكره  
لاشتهاره . . . والفرس هم شحنة دواوين الخلافة والعمال  
الذين بهم قوام السياسة فمن الوزراء وسائر عمال  
الدواوين» (٤).

ومما يدل على أن الفارسيين كانوا يعتبرون أخصائيين  
في الكتابة ما يرويه الجهشيارى (٥) في تقدير الخليفة  
عبد الملك لأحد كتابه هو روح بن زنباع الجذامسي  
المكنى أبا زرعة . وكان روح على ما يظهر ذا شخصية  
قوية شديد التدقيق ، حتى أن معاوية أراد قتله ؛ فلما  
قلد عبد الملك أخاه بشرا العراق ضم إليه روح بن  
زنباع ليراقب معاملاته الإدارية والمالية ، حتى أن بشرا  
احتال في التخلص منه . وكثيراً ما كان عبد الملك

(٤) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٨ ،  
ص ٨١ .

(٥) ابن خلكان ، ص ٣٨٧ .

(٦) في كتابه مسالك الممالك ، طبعة ليدن ، ١٩٢٧ ، ص ١٤٥/٦ .

(٧) كتاب الوزراء والكتاب ، ص ٣٥ . وانظر ملاحظات الاستاذ  
لانس الذي نقل هذا الكتاب الى الألمانية في مقدمته وحواشيه :

Josef Latz, *Das Buch der Wezire und Staatssekretäre*

(Walldorf-Hessen 1958), pp. 37, 83, 154 n. 208.

يقول : «أن روح بن زنباع شامي الطاعة ، عراقي  
الحظ ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة» .

كما ورد في **كتاب الوزراء** للجهشيارى : «ولم  
يزل بالكوفة والبصرة ديوانان : أحدهما بالعربية  
لاحصاء الناس واعطياتهم ، وهذا الذي كان عمر قد  
رسمه ، والآخر لوجوه الاموال بالفارسية . وكان  
بالشام مثل ذلك ، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية .  
فجرى الأمر على ذلك الى أيام عبد الملك بن مروان .  
فلما قلد الحجاج العراق كان يكتب له صالح بن عبد  
الرحمن ويكنى أبا الوليد . . . وأمر الحجاج صالحاً  
بنقل الدواوين الى العربية في سنة ٧٨ هـ . وكان عامة  
كتاب العراق تلامذة صالح» (ص ٣٨-٣٩) .

وقد ورد هذا الخبر أيضاً في كتاب «فتوح البلدان»  
للبلاذري (٨) ، ويضيف المؤلف ملاحظة لها أهميتها  
بالنسبة لما نحن بصدده ، حيث يقول : «فكان عبد  
الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در  
صالح ما أعظم منته على الكتاب» . يشهد هذا التعبير من  
الناحية السيكولوجية على أن عبد الحميد بن يحيى عرف  
صالحاً معرفة شخصية ، وربما كان من تلامذته في  
العراق وإن لم يذكره الجهشيارى فيمن ذكرهم في آخر  
الفقرة المنقولة اعلاه . ومما يؤيد هذه الفكرة أن عبد الله  
ابن المقفع - وهو صديق عبد الحميد الكاتب ، كما هو  
معروف من بعض الروايات عن وفاته - كان من الكتاب  
الصغار الذين خدموا صالحاً في ديوانه كما يتبين من  
حادث وقع بينهما حسب ما يرويه البلاذري على لسان  
عبد الله بن المقفع نفسه (٩) .

غير أن هناك خبراً آخر يدل - أن صح هذا الخبر -  
على أن عبد الحميد كان مرتبطاً بحركة نقل الدواوين  
من الفارسية الى العربية بطريقة مباشرة أكثر من مجرد  
كونه تلميذاً لصالح ، إذ أننا نقرأ الجملة التالية في  
كتاب التاريخ الفارسي المسمى **تاريخ كزیده** تأليف

(٨) طبعة ليدن ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٩) كتاب فتوح البلدان ، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

٩٦ و ٩٩ هـ (٧١٥ - ٧١٧ م) ، أي أن عبد الحميد مارس الكتابة ٣٥ سنة عن الأقل .

وتبدو مثل هذه الفترة الطويلة في عمل الكاتب غير معقولة إن لم تكن مستحيلة . ومن هنا جاء افتراض بعض الباحثين أن هناك شخصين كانا يحملان اسم عبد الحميد الكاتب ، عاش أحدهما في عهد عبد الملك والثاني في عهد مروان .

وثمة ثلاثة نقايل تدعم هذا الافتراض :

(أ) يذكر ابن خلكان كنية عبد الحميد «ابو غالب» بينما يذكر شبرنلينك في مقاله عن نقل الدواوين من الفارسية الى العربية (١٢) أن كنيته «ابو المهاجر» . ولا اعرف ما هو المصدر الذي يستند اليه شبرنلينك اللهم الا اذا افترضنا انه اتخذ هذه الكنية عن الاسم الذي أطلق على ذرية عبد الحميد بعد وفاته باكثر من قرن ، إذ يذكر الجهشماري في **كتاب الوزراء** (ص ٨٢) : «وكان لعبد الحميد عقب يسكنون مصر ٠٠٠٠ فلما صار أحمد بن طولون الى نواحي مصر اتصل به اربعة نفر من ولده يعرفون ببني مهاجر ٠٠٠٠ واستكتب احمد بن طولون منهم الحسن بن محمد بن ابي المهاجر الخ» (١٣) .

(ب) في الصفحة ٢٧٣ من كتاب **تاريخ كزيده** (١٤) ورد اسمه «عبد الحميد بن محمد» حيث يذكر المؤلف ان عبد الحميد كان المسؤول عن نقل الدواوين في عهد عبد الملك ، بينما ورد اسمه عبد الحميد بن يحيى في ص ٢٨٨ بصورة واضحة . ومن الجدير بالذكر ان نشر هذا الكتاب الفارسي لم يتم على طريقة الطباعة انما بالتصوير عن الاصل المخطوط المؤرخ سنة ٨٥٧ هـ (= ١٤٥٣ م) ، مما يحول دون وقوع اخطاء مطبعية (وطبعا لا يعني ذلك عدم وقوع خطأ في الاصل) ، ولم ينتبه واضع فهرست الاعلام لكتاب **تاريخ كزيده** وهو المستشرق

(١٢) M. Sprengling, "From Persian to Arabic", in Amer. Journal of Semitic Languages and Literatures, vol. LVI (1939), p. 208, 366.

(١٣) وانظر ايضا خيرا شيبا بهذا الخبر في كتاب **التنبيه والاشراف** للمسعودي - طبعة لندن ١٨٩٤ ، ص ٣٢٨ .

(١٤) انظر م. رقم ١٠ ، ص ١٠٠ .

حمد الله مستوفي قزويني (١٠) : «وفي عهد عبد الملك نقلت الدواوين عن الفارسية الى العربية . والذي قام بهذا المشروع عبد الحميد» .

دل هو واخوه أو اثنين ؟

يشير عدا الخبر بعض الصعوبة من حيث التسلسل الزمني \* ، إذ أن الخليفة عبد الملك كان قد حكم فيما بين السنين ٦٥ - ٨٦ هـ (الموافقة ٦٨٥ - ٧٠٥ م) ، ومن البديهي ان لا يكون الكاتب المسؤول عن نقل الدواوين الى العربية شابا مفتقرا الى الخبرة . وقد ذكرنا من جهة اخرى أن عبد الحميد قتل في سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، ومعنى ذلك ان عبد الحميد خدم في الكتابة مدة تنوف عن الخمسين سنة .

ويذهب العلامة جولدصيهر (١١) الى رأي مشابه حيث يقول : «كتب عبد الحميد ، مبتدع فن كتابة الرسائل ، في النصف الثاني من العهد الاموي لجميع خلفاء بني أمية تقريبا ، ابتداء من ايام سليمان بن عبد الملك» . والمعروف ان سليمان حكم فيما بين سنة

(١٠) طبعة ليدن ١٩١٠ ، بتحقيق المستشرق براون ، المجلد الاول ، ص ٢٧٣ .

(١١) Ignaz Goldziher, *Abhandlungen zur arab. Philologie* (Leiden 1866), vol. I, p. 66, n. 4.

\* وتسهلا على القارئ في فهم الناحية الزمنية لهذا البحث نورد فيما يلي اسماء بعض خلفاء بني أمية مع سنوات حكمهم :

هجري	ميلادي	اسم الخليفة
٦٤ - ٦٥	٦٨٣ - ٦٨٥	مروان بن عبد الحكم
٦٥ - ٨٦	٧٠٥ - ٧٠٥	عبد الملك بن مروان
٨٦ - ٩٦	٧١٥ - ٧١٥	الوليد بن عبد الملك
٩٦ - ٩٩	٧١٥ - ٧١٧	سليمان بن عبد الملك
٩٩ - ١٠٢	٧١٧ - ٧٢٠	عمر بن عبد العزيز
١٠٢ - ١٠٥	٧٢٠ - ٧٢٤	يزيد بن عبد الملك
١٠٥ - ١٢٥	٧٢٤ - ٧٤٣	هشام بن عبد الملك
١٢٥ - ١٢٦	٧٤٣ - ٧٤٤	الوليد بن يزيد
١٢٦	٧٤٤	يزيد بن الوليد
١٢٧	٧٤٤	ابراهيم بن الوليد
١٢٧ - ١٣٢	٧٤٤ - ٧٥٠	مروان بن محمد

## هل كان وزيراً ؟

وقد جاء في كتاب الجهشياري (ص ٨٣) ان عبد الحميد «تقلد وزارة مروان» اي انه عين وزيراً له . واذا صح هذا الخبر فمعنى ذلك ان عبد الحميد كان اول موظف اداري لقب بهذا اللقب ، وانه كان الوحيد في ايام بني امية . ومن المعروف ان اول استعمال لهذا اللقب كان في ايام الدعوة العباسية قبيل انقراض الدولة الاموية ، حين عين رئيس هذه الحركة شخصاً يدعى أبا سلمة للقيام بوظائف معينة ولم يكن الناس يعرفون كيف يلقبون حامل هذه المسؤوليات الذي ينوب عن حاكم ليس له منصب رسمي ، ولذلك سمي بـ «وزير» أي من يساعد على حمل الوزر (١٩) .

وفي هذا الصدد نجد في كتاب الوزراء للجهشياري (٢٠) الخبر التالي :

«ولما حضرت ابا هاشم الوفاة كتب الى ابراهيم الامام يخبره انه ٠٠٠ وقد استخلف (ابا سلمة) حفص بن سليمان . فكتب ابراهيم الى ابي سلمة يأمره بالقيام بأمر اصحابه ، وكتب الى اهل خراسان انه قد اسند امرهم اليه . ومضى ابو سلمة الى خراسان فقبلوا امره ودفعوا اليه خمس اموالهم ونفقات الشيعة ٠٠٠٠ ولما هزم ابن هبيرة وقصد واسط ودخل حميد والحسين ابنا قحطبة الى الكوفة ، اظهروا ابا سلمة وسلموا اليه انرياسة وسموه وزير آل محمد ، ودبر الامور وأظهر الامامة الهاشمية ، ولم يسم الخليفة . وكان ابو مسلم يكتبه : «للامير حفص بن سليمان وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم امير آل محمد» . وكانت مدة تقليد ابي سلمة الامور منفرداً بها الى ان ظهر امر الشيعة شهرين ونصفاً .»

(١١) هكذا يحلل ويحدد مجرى الامور الاستاذ جويطايين في مقاله عن الوزارة :

S. D. Goitein, "The Origin of the Vizierate and its True Character", in: Islamic Culture (Hyderabad), vol. XVI (1942), pp. 255-263, 380-392.

(٢٠) كتاب الوزراء والكتاب ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .

العلامة نيكولسون الى هذا الاختلاف في الاسمين فأورد في الفهرست اسم عبد الحميد بن يحيى فقط (١٥) .

(ج) يكنى عبد الحميد بن يحيى بـ «الاصغر» ، وبناء على ذلك يقول السيد بيوركمان في بحثه عن «الدواوين في مصر في عهد الفاطميين» (١٦) : «ويكنى عبد الحميد بالاصغر للتمييز بينه وبين كاتب اخر اكبر منه سناً واقل شهرة كان يحمل نفس الاسم» ، غير ان بيوركمان لم يصف الى قوله هذا اي خبر عن هوية هذا الكاتب «الاكبر» .

وبناء على ذلك فمن المحتمل انه كان هناك كاتب اسمه الكامل «ابو المهاجر عبد الحميد بن محمد الاكبر» في ايام الخليفة عبد الملك ، وكاتب اخر اسمه الكامل «ابو غالب عبد الحميد بن يحيى الاصغر» في ايام مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية .

ومما يدعم هذا الرأي ما يقوله ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٧) : «وكاتب عبد الملك بن مروان سالم مولاه ثم كتب له عبد الحميد بن يحيى وهو عبد الحميد الاكبر ٠٠٠ وكاتب سليمان بن عبد الملك عبد الحميد الاصغر ٠٠٠» . وكذلك نجد ابن عبد ربه يقول (١٨) : «من نبيل بالكتابة وكان قبل خاملاً : سرجون بن منصور الرومي ٠٠٠ وحسان النبطي كاتب الحجاج وسالم مولى هشام وعبد الحميد الاكبر ٠٠٠» .

ويظهر ان كتاب العقد هو المصدر القديم الوحيد الذي ورد فيه ذكر عبد الحميد الاكبر ، ومن المعروف ان هذا الكتاب لا يخلو من الاخطاء ولا يعتمد عليه بغير تأييد من مصدر اخر اصيل . ولذلك ليس بإمكاننا ان نبت بصورة قاطعة فيما اذا كان «عبد الحميد» شخصاً واحداً او شخصين ، والله اعلم .

(١٥) في الجزء الثاني من الكتاب ، ص ١٠٢ . ذكروا الصفحتين ٢٧٣ و ٢٨٨ .

(١٦) Walther Björkman, Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islam. Aegypten (Hamburg 1928), p. 4.

(١٧) طبعة بولاق ، ١٣٢١ هـ ، جزء ٢ ، ص ١٦٨ .

(١٨) العقد الفريد ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

وحول نفس الموضوع يقول القلقشندي (٢١) ان «ابا العباس السفاح اول خلفاء بني العباس استوزر ابا سلمة الخلال وهو اول من لقب بالوزارة في الاسلام» .

وفي رواية اخرى ان اول من لقب وزيراً بصورة منظمة الوزير يعقوب بن داؤد ، وذلك في ايام المهدي ثالث خلفاء بني العباس (٢٢) . ويقول ابن خلكان عنه : «وكان يعقوب بن داؤد وزير المهدي كاتباً بين يدي عبد الحميد وممن تخرج عليه وتعلم منه (٢٣)» .

ويتضح هذا الامر ايضا بما يحكيه لنا القلقشندي (٢٤) حيث يقول : «ثم كانت دولة بني امية ٠٠٠ وأمر ديوان الانشاء في زمن كل احد (من خلفائهم) مفوض الى كاتب ٠٠٠ فلما بزغت شمس الخلافة العباسية بالعراق ٠٠٠ كان ديوان الانشاء تارة يضاف الى الوزارة فيكون الوزير هو الذي ينفذ اموره بقلمه ويتولى احواله بنفسه ، وتارة يفرد عنه بكاتب ينظر في امره ، ويكون الوزير هو الذي ينفذ اموره بكلامه ٠٠٠ وصاحب ديوان الانشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة» .

كما نجد ان أحد وزراء الدولة العباسية عزل عن منصبه ومع ذلك استمر في ممارسة وظيفة الكاتب ، وهذا ما ورد في كتاب **الوزراء والكاتب** (ص ١٥٦) : «ثم صرف المهدي ابا عبيد الله عن وزارته في سنة ١٦٣ واقتصر به على ديوان الرسائل» .

والحق يقال ان اللقبين كانا يستعملان بالتبادل حتى في عهد بني العباس كما يشهد المسعودي (٢٧) في قوله : «ولم يملك المأمون بعد الفضل بن سهل كتابه امره لقيامه بالملك واضطلاعه به ولم ير احد انه مفتقر الى وزير يشركه في تدبيره ولم يكن يسمى بين يديه احد من كتابه وزيراً ولا يكاتب بذلك ، فلاجل ذلك ترك كثير من الناس ان يعد من ذكرنا في الوزراء ، ورايت من صنف كتاباً في اخبار الوزراء والكاتب ٠٠٠ كمحمد بن عبدوس الجهشيارى ٠٠٠ منهم من عددهم في الوزراء ومنهم من لم يعددهم للسبب الذي بينا» .

### اسلوبه وملكته في الكتابة

اشتهر عبد الحميد بن يحيى - بالاضافة الى مهارته في الكتابة اي اشغال الادارة الحكومية والى اخلاصه وولائه - بقدرته الابدبية واللغوية ، ويشهد على ذلك ما قاله عنه ابو هلال العسكري في كتابه **ديوان المعاني** (٢٨) :

- (٢٦) صبح الاعشى ، طبعة القاهرة ، جزء ١ ، ص ٩٣ و ١٠٣ .  
(٢٧) كتاب التنبيه والاشراف ، طبعة لندن ١٨٩٤ ، ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت ١٩٦٨ ، ص ٣٠٤ .  
(٢٨) طبعة القاهرة ، ١٣٥٢ ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

ويشير المستشرق الامريكى شبرنلينك الى ان هذا الخبر الوارد في **كتاب الوزراء** للجهشيارى والذي لم ينتبه اليه اكثرية المؤرخين العرب والمستشرقين على السواء ، يدل على اعادة التنظيم الاداري على نطاق واسع في ايام مروان ، الذي يعتبره شبرنلينك اكبر خلفاء بني امية الا ان هذا الخبر لا يؤيده اي مصدر اخر ، اذا استثنينا ما جاء في كتاب **تاريخ كزيمه** (٢٤) من تلقيب عبد الحميد ابن يحيى بـ «وزير» الخليفة مروان بن محمد . ولكن من المعروف أن هذا المصدر التاريخي الهام يعود الى عهد المغول وقد تم تأليفه سنة ١٣٣٢ م أي بعد مضي نحو ٦٠٠ سنة ، ولا يعتمد عليه فيما يخص تفاصيل الوقائع التاريخية في عصر بني امية . كما انه ليس هناك دليل اخر على اعادة التنظيم الاداري في ايام مروان (٢٥) .

والذي نستطيع ان نقوله استناداً الى هذا الخبر الذي ورد عند الجهشيارى انه يدل على الاحترام البالغ الذي كان معاصرو عبد الحميد يكتونه له . كما انه يدل على أن هذين اللقبين أي «كاتب» و «وزير» لم يكونا في ذلك العصر القديم يختلفان عن بعضهما الى مدى بعيد وربما كان الناس يلقبون الكاتب وزيراً والوزير كاتباً .

- (٢١) صبح الانشى ، طبعة القاهرة ، ١٩١٣ ، مجلداً ، ص ٩٣ .  
(٢٢) جويطايين ، في مقاله الانف الذكر ، ص ٢٨٣ .  
(٢٣) وفيات الاعيان ، طبعة بولاق ، ص ٣٨٧ .  
(٢٤) طبعة لندن ، ١٩١٠ ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .  
(٢٥) انظر رد الاستاذ دومينيك سورديل على آراء الاستاذ شبرنلينك - Dom. Sourdell, *Le Vizirat Abbaside* (Damas 1959), vol. I p. 60.

«وكان عبد الحميد الكاتب استخرج امثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي» .  
كما نجد ابن عبد ربه صاحب **العقد الفريد** يقول عن عبد الحميد (٢٩) انه «كان اول من فتق اكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر» .

ويقول الفلقشندي (٣٠) : «وكان ممن اشتهر من كتابهم (اي كتاب خلفاء بني امية) بالبلاغة وقوة الملكة في الكتابة حتى سار ذكره في الافاق ، وصار يضرب به المثل على ممر الازمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد اخر خلفائهم» .

وقد شرح الاستاذ طه حسين معنى هذه «البلاغة وقوة الملكة في الكتابة» احسن شرح حيث قال (٣١) : «في القرن الثاني للهجرة ظهر كاتبان (اي عبد الله بن المقفع وعبد الحميد الكاتب) يعتقد العرب والمستشرقون انهما هما اللذان اسسا النشر العربي ٠٠٠٠ وقد امتازا امتيازاً ظاهراً في هذا العصر حتى أصبحا رمزا لهذا النشر الذي ليس هو لغة التخاطب ولا اللغة العلمية الطبيعية ، ولا اللغة الفلسفية ولا التاريخية ، ولكنه نشر فيه شيء من الفن ، وفيه ميل الى احداث اللذة عند القارئ فوق العناية بتأدية الفكرة» .

وقد حاول الاولون والآخرين من أدباء العربية ومن مؤرخيها ان يحددوا ميزة اسلوب عبد الحميد الكاتب وما يجدر أن ينسب اليه من احداث وتجديد . وقد قال ابن خلكان في اخبار عبد الحميد بن يحيى (٣٢) : «وهو اول من اطال الرسائل واستعمل التجميدات في فصول الكتب» . وينبغي التحفظ من هذا القول لسببين ، اولهما ان هناك من اطال الرسائل قبل عبد الحميد بن يحيى ، اذ أننا نقرأ في **تاريخ الرسم والملوك** لابي جعفر

(٢٦) طبعة القاهرة ، ١٩٤٤ ، مجلد ٤ ، ص ١٦٥ .

(٣٠) **صبح الأعشى** ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٣١) محاضرة بعنوان «النشر في القرنين الثاني والثالث للهجرة» القاها يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٣٠ ، وطبع في مجموعته من حديث **الشعر والنثر** ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ٤٧ - وانظر ص ٥٨ .

(٣٢) **وفيات الاعيان** ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣٣) طبعة لندن ، بتحقيق دي-جوية ، الجزء الاول من السلسلة الثانية ، ص ٢٧٠ .

الطبري (٣٣) : «ان عبيد الله بن زياد لما قتل مسلماً وهائماً بعث برؤوسهما الى يزيد بن معاوية (وذلك سنة ٦٠ هـ) ، وامر كاتبه عمرو بن نافع ان يكتب الى يزيد بن معاوية بما كان من مسلم وهائىء ، فكتب اليه كتاباً اطال فيه وكان اول من اطال في الكتب ، فلما نظر فيه عبيد الله بن زياد كرهه وقال : ما هذا التطويل وهذه الفضول ، اكتب اما بعد فالحمد لله الخ» .

والسبب الثاني أن عبد الحميد كان يطيل مرة ويوجز مرات ، وفعلاً نراه اوجز في تلك الرسالة التي تحسن بصدها اي رسالته «الى الكتاب» والتي لا تعدو الاربع صفحات ، وهي تختلف في اسلوبها عن اكثرية مؤلفاته ، اذ أنها تخلو من التكرار والزخرفة والوسائل البيانية والافراط في البلاغة . وقد تفوق عبد الحميد بن يحيى ايضاً في الحكم القصيرة على طريقة الاسلوب العسري البدوي القديم ، ومن الاقوال المنسوبة اليه والتي اوردها الجهشيارى في **كتاب الوزراء والكتاب** (ص ٨٢ و ص ٨٠) الاقوال التالية :

— العلم شجرة ثمرتها الالفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة .

— الناس اصناف مختلفون واطوار متباينون ، منهم علق ذهنة لا يباع ، ومنهم غل مظنة لا يبتاع .

— اكرموا الكتاب فان الله عز وجل اجرى ارزاق العباد على ايديهم .

ومن مؤرخي الاداب العربية في عصرنا نجد ان الاستاذ طه حسين قد كرس له عدة صفحات في محاضراته «النشر في القرنين الثاني والثالث للهجرة» ، ثم رجع اليه في بحثه «البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر» (٣٤) حيث يقول : «ان عبد الحميد كان احد كتاب القسرون الثاني الاقلاء الذين فهموا «الفصول» (اي انفصال الكلام الى فقرات وجمل وفقاً للاشكال والمعاني) كما كان يفهمها

(٣٤) طبع هذا البحث في مقدمة كتاب نقد النشر لقدامة بن جعفر بتحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادى . القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٢ .

علماء البيان من اليونان \* ونفس بناء جملة يظهر تأثيرا واضحا بالهيلينية ، فهو يضع الصفة في الجملة حيث يقتضي المعنى وضعها ولو اغضب النحاة بعض الشيء \* .

وفي محاضراته المذكورة وقف طه حسين على ميزة لغوية اخرى تميز بها عبد الحميد وهي الاسراف في استعمال الحال ، حيث يقول (٣٥) : «الحال معروفة في العربية ، وهو (أي عبد الحميد) انما يعتمد عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييمها وتجميل الكلام واظهار الموسيقى \* \* \* \* واستعمال الحال على هذا النحو من خصائص اللغة اليونانية ومن الاسباب التي يعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم \* هذه الظاهرة عند عبد الحميد تقوي عندي أنه كان شديد الاتصال باليونانية ، ذلك لان مدارس الادب اليوناني كانت منبثة في الشرق كله : في الاسكندرية وغزة وانطاكية والشام والجزيرة حثسى العصر العباسي» .

#### آراء القدماء فيه

شعر الادباء الذين عاصروا عبد الحميد بن يحيى بميزته الادبية واللغوية ولو انهم لم يستطيعوا تحليل عناصره ومصادر التأثير التي دخلت في اسلوبه ، وربما بالغوا في مدحه كما نجد مثلا في الفقرة التالية الواردة في الصفحة ١٤٩ من كتاب اكتاب لعبد الله البغدادي (٣٦) : «ذكر عبد الحميد بن يحيى الكاتب يوما في مجلس فيه جماعة من الكتاب فقال اسماعيل ابنه - وكان احسد الحاضرين قد سأله أن يصف ما عنده من المعرفة ببلاغته ليكن ذلك مأثورا عنه محفوظا منه - فقال : «كان الكتاب قبل عبد الحميد بن يحيى حروفا جريفة ، منقطعة الاوصال عن معاني التأليف ، منقوصة القوى عن مذاهب المعاني ، غير مؤنقة للاسماح ولا مستوعبة للحجج ، تدل على اعيان الاشياء دلالة ضعيفة وتخبر عن القلوب اخبارا غير كأف وتؤدي اليها تادية غير شافية \* وكانت حظوظ الكتاب

على قدر غنائمهم وكان غناؤهم على أقدار هممهم في البلاغة دون ورود بحور الافهام وفتح عيون ينابيع الكلام على رسم من التشويق والتأليف والتشبيه والامثال قد كان عليه الشعراء ثم تلاهم في مثله الخطباء \* .

فلما افضت الامور في ذلك الى عبد الحميد راض صعب الكلام فسهلها ، وركب ذلك فامتتها ، ثم وصله توصيلا اظهر زينته وألفه تأليفا البسه حليته ، واستنبط الرأي من خزائنه استنباطا قويا ، واستقصى المعاني من وجوهها استقصاء شافيا ، وصرف الحجج وصنف الامور وفتق عنها اكمامها وهتك عن القلوب حجبا وقذف في الاسماع منافعها \* وانتظم كلام المتكلمين وخطب المتنطعين وشعر السالفين ومواعظ الرواعظين ، فصير ذلك منهاجا فات فيه سبقه وبرز فيه ميله وذهب فيه شأوه وابان فيه فضله ، وثبتت فيه رؤاسته ووجب به على اهل صناعته حقه وشكره ، ونالوا منه منزلة شرف كانوا عنها متضعين وركبوا به طريقة فضل كانوا عنها مقصرين فصارت لهم الوزارة وعندهم الكفاية ولهم فضائل الادب \* وصارت كتبه محكمة باقية دائمة دافعة يحتذى عليها الباؤون ويمثلها المتنطعون وينتهي اليها الامثلسون ويعرف فضلها الاولون من أهل زمانه والاخرون» .

ويضرب المثل بعبد الحميد بن يحيى في البلاغة حتى قيل (٣٧) : «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد» . وابن العميد المشار اليه هو ابو الفضل محمد ابن الحسين بن محمد بن العميد ، وزير السلطان ركن الدولة من ملوك الدولة البويهية في القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) ، توفي في همدان عام ٣٦٠ (٩٧٠ م) بعد ان قام بالوزارة ٣٢ سنة \* وقد مسدح أسلوبه المسكوبه والشعالي بينما لاهه ابو حيان التوحيدي (٣٨) \* ولذلك فمن المحتمل ان هذا المثل المذكور فيه من المدح لعبد الحميد اكثر منه لابن العميد \* .

ومما يدل على انه ضرب المثل به في البلاغة ما قاله ابو عبادة البحتري الشاعر وواضع الحجاسة المتوفى سنة

(٣٥) دن «حديث الشعر والنثر» ص ٦٣ و ٦٥ و ٦٦ \* .

(٣٦) Dominique Sourdel: "Le Livre des Secrétaires de 'Abdallah al-Baghdadi", in: Bulletin des Etudes Orientales (Damas), vol. 14 (1952-54).

(٣٧) ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٢٨٢ \* .  
(٣٨) Cl. Cahen in E. L., New Edition, vol. III p. 703. (٣٨)



٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) حين اراد مدح بعض البلغاء واسمه محمد بن عبد الملك الزيات (٣١) : «قد تصرفت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد» .

### آثاره الأدبية

يقول ابن خلكان عن عبد الحميد : «ومجموع رسائله مقدار الف ورقة» (٤٠) . ولا غرابة في ذلك اذا تذكرنا انه مارس الكتابة خلال سنوات عديدة . ويشهد على كثرة انتاجه من الرسائل الادارية الحكومية ما يحكيه البغدادي (٤١) من ان الوزير المشهور يحيى بن خالد البرمكي وجه الى اسماعيل بن عبد الحميد بن يحيى : «فأحضر وبين يديه مرفع عليه دفتر كبير فقال : «يا اسماعيل اتدري ما بين يدي ؟» قال : «نعم ، مصحف» قال : «لا ولكن رسائل ابيك فانا ما نلتمس شيئا يريد ان يؤيد به الملك الا وجدنا اباك قد سبقنا اليه» .

ولكن عوادي الدهر ذهبت بالاكثرية الساحقة من رسائل عبد الحميد ومؤلفاته ، ولم يبق منها الا عدد ضئيل من الرسائل وبعض القطع المشتتة ، جمعها الاستاذ محمد كرد علي في مجموعته **رسائل البلغاء** (٤٢) . نذكر منها رسالة «في الشطرنج» يحذر فيها «من الهجهم الشيطان» بهذا اللعب ويوعز اليهم «ناهيا وواعظا وزاجرا الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها ، لما في ذلك من عظيم الالم وموبق الوزر ، مع مشغلتها عن طلب المعاش واضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع المسلمين» (٤٣) .

ومن الرسائل الباقية له رسالة «في نصيحة ولسي العهد» (٤٤) كتبها على لسان الخليفة مروان الى ابنه وولي

(٣٦) العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة بولاق ، ١٣٢١ ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٤٠) ابن خلكان ، **وفيات الاعيان** ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

(٤١) كتاب الكتاب بتحقيق سوذيل ، ص ١٤٩ .

(٤٢) الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٧٣ - ٢٢٦ .

(٤٣) رسائل البلغاء ، ص ٢١٢ .

(٤٤) رسائل البلغاء ، ص ١٧٣ - ٢١٠ .

عنده عبد الله بن مروان حين وجهه الى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، وكان قد استولى على الموصل ونواحيها سنة ١٢٧ هـ .

تنقسم هذه الرسالة الى موضوعين اولهما عرض للطريقة التي ينبغي على ابناء الملوك والعظماء ان يسلكوها وتحديد الاخلاق الفاضلة التي بها الضمان الاعظم لقيام مملكتهم وسلطانهم ، وهذا الفصل من الرسالة بمثابة حلقة من سلسلة مؤلفات شبيهة الجنس تعرف منها الجزء الاول من **الكتاب الفخري** لابن الطقطقي مثلا ، وكتاب **كليلة ودمنة** الذي نقله عن الفارسية عبد الله بن المقفع الذي كان صديقا لعبد الحميد بن يحيى ، وينعكس في هذا الفصل من الرسالة التراث الفارسي الساساني الذي صبغ الكثير من عادات الدولة الاسلامية في الحقل المدني والسياسي . اما الموضوع الثاني في رسالة عبد الحميد الى ولي العهد فهو وضع الخطط الحربية التي ينبغي انتهاجها في محاربة العدو ، وهذا الفصل متأثر بفن القتال كما كان معهودا عند الروم البيزنطيين ، ويشهد ذلك اما على اشتراك عبد الحميد في بعض المعارك التي شنتها الدولة الاموية ضد الروم واما على قيام تراث ادبي نقلت بواسطته مفاهيم وافكار يونانية ورومية الى العالم الاسلامي (٤٥) .

### رسائله الى الكتاب - نشرها ونصها

نتطرق الان الى رسالته الى الكتاب ، مبتدئين بتاريخ طباعتها ونشرها ثم بتحليل مواضيعها . وصلت اليها «الرسالة الى الكتاب» على ثلاث روايات ، اذ انها ادرجت في بعض المؤلفات القديمة التي شأنها الادارة الحكومية ، نذكرها هنا حسب ترتيب طبعتها ونشرها .

(٤٥) انظر ما قاله الاستاذ جب عن هذه الرسالة :

H. A. R. Gibb, art. "Abd al Hamid", in E. I., New Ed., vol. I p. 65-66.

وايضا ما قاله طه حسين في التأثير اليوناني على أسلوب عبد الحميد

فأول كتاب نشر من الكتب الثلاثة التي وردت هذه الرسالة فيها هو مقدمة ابن خلدون في علم التاريخ ، وقد طبعت لأول مرة سنة ١٨٥٧ في مصر بتحقيق العلامة السيد نصر الهوريني ، ومن هنا عرفت الرسالة ، واستنادا الى هذا المصدر طبعها الاستاذ محمد كرد علي في سنة ١٩٠٨ في مجموعته المسماة رسائل البلغاء والتي صدرت طبعها الثانية سنة ١٩١٣ ثم طبعة ثالثة في سنة ١٩٤٦ (٤٦) .

المصدر القديم الثاني الذي وردت الرسالة فيه هو كتاب صبح الاعشى للقلقشندي ، الذي نشرته المطبعة الاميرية بالقاهرة في ١٤ مجلدا بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٩ . ونص الرسالة في الصبح يطابق نصها في المقدمة .

أما المصدر الثالث والتي وردت الرسالة فيه في نص يختلف شيئا ما عن النص المشترك للصبح والمقدمة ، فهو كتاب الوزراء والكتاب لابن عبدوس الجهشيارى . لم يكن هذا الكتاب معروفا الى ان نشره المستشرق فون مجيك النمساوي بتصوير صفحاته الاصلية في سنة ١٩٢٦ . ثم طبع الكتاب في مصر سنة ١٩٣٨ وفقا لهذا النص المصور بتحقيق ثلاثة اساتذة وهم السادة السقاء والابيارى وشلبى . ومنذ نشر هذا الكتاب كثر من عني برسالة عبد الحميد ، فنجد الاستاذ محمد كرد علي (الذي قد اصبح وزيرا للمعارف في سوريا ورئيسا للمجمع العلمي العربي في دمشق) يلقي محاضرة عن عبد الحميد (٤٧) في المجمع العلمي يوم ١٤ كانون الاول

(٤٦) وكذلك طبعت الرسالة في المجلد الثاني من كتاب الدكتور احمد

فريد رفاعى عصر المأمون (القاهرة ، ١٩٢٧) ص ٥٣-٥٦ ، نقلا عن مقدمة ابن خلدون ، طبعة بولان ، ص ٢٠٦ .

(٤٧) نشرت محاضراته مع نص الرسالة في الجزئين ٩-١٠ من المجلد التاسع من «مجلة المجمع العلمي العربي» ، ص ٥٢٠ الخ . وقد أعيد طبعا في ص ٢٨-٩٨ من مجموعة مقالات الاستاذ كرد علي الادبية الصادرة له بعنوان امراء البيان (القاهرة ، ١٩٣٧) ، وقد ورد نص «الرسالة الى الكتاب» في ص ٩٢-٩٧ .

سنة ١٩٢٨ ويدرج نص الرسالة الكامل في محاضراته (٤٨) .

وإذا نظرنا الى الفترة التاريخية التي عاش فيها كل من المؤلفين الثلاثة الذين اوردوا الرسالة في مؤلفاتهم ، وجدنا ان اقدمهم هو الجهشيارى الذى توفي سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) ، ويليه بعد فترة طويلة عبد الرحمن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م) ، ونجد ان القلقشندي عاصره اذ توفي بعده في سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) . وقد الف ابن خلدون مقدمته في سنة ١٣٧٧ حين كان القلقشندي في الثانية والعشرين من عمره ، ومن المعروف ان القلقشندي نقل عن المقدمة اكثر من مرة (٤٩) ، ولا عجب اذا أن يكون نص الرسالة متطابقا في هذين المصدرين .

وإذا اخذنا بعين الاعتبار ان الجهشيارى عاش بعد عبد الحميد بن يحيى بمائتي سنة ، بينما عاش ابن خلدون والقلقشندي بعد مضي ٦٥٠ سنة ، فمن المفروض ان نستنتج بأن النص الوارد في كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى هو القديم والاقر من الاصل ، ولذلك اعتمدنا عليه في هذه الدراسة .

ومن الغريب ان نجد السيد كرد علي ، الذي نشر نص الرسالة وفقا لكتاب الوزراء في محاضراته الشامية في سنة ١٩٢٨ وفي كتابه امراء البيان سنة ١٩٣٧ ، ينشر في مجموعته رسائل البلغاء سنة ١٩٤٦ نصا اخر محرفا مليئا بالاطعاء والتشويشات دون أن يذكر اصل ومصدر هذا النص ، مكتفيا بملاحظة مبهمه ان «بين المراجع خلاف في ترتيب بعض الفقرات» .

(٤٨) طبعت رسالة عبد الحميد الى الكتاب ايضا في جبهة رسائل العرب لاحمد زكي صفوت (طبعة القاهرة ، ١٩٣٧) المجلد الثاني، ص ٥٣٤-٥٤٠ (رقم ٥٠٦) ، نقلا عن صبح الاعشى و مقدمة ابن خلدون و كتاب الوزراء .

(٤٩) انظر ملاحظة الاستاذ روزنطال في مقدمته لترجمته الانكليزية لقدمة ابن خلدون ، مجلد ١ ، ص ٦٦ ، حاشية ٨٠ .

لننظر الآن في نص الرسالة ، نرى انها تتألف من عدد فقرات يمكن تحديدها كما يلي :

- أ ) تهيئة الكتاب والاشارة الى اهمية مهنة الكتابة .
- ب ) خصال الخير والمؤهلات الاخلاقية المطلوبة في الكاتب
- ج ) صنوف الاداب والمؤهلات العلمية المطلوبة في الكاتب
- د ) ترغيب الكاتب عن المطامع والتكبر ، وواجباته تجاه زملائه .
- هـ ) وجوب الحرص على مصالح الـ «صاحب» وخدمته عن وفاء وصبر في جميع الاحوال .
- و ) وجوب الرفق والعدل تجاه الرعايا .
- ز ) على الكاتب ان يختبر خلايق صاحبه لتسهل عليه معاملته ومحاورته كما يختبر السائس اخلاق دابته .
- ح ) وجوب الامتناع عن الترف والتبذير .
- ط ) وجوب الاستدلال بالسوابق والايجاز بالكلام .
- ي ) وجوب التواضع .
- ك ) خاتمة الرسالة .

نرى اذا أن هذه الرسالة على اختصارها تشمل عدة مواضيع مختلفة متنوعة ، منها افكار اخلاقية عامة يصح لكل انسان أن ينتبه اليها ومواعظ عامة يجدر بكل انسان ان يراعيها ، مع فقرات وصفية تعكس الجو الاجتماعي السائد في ذلك العهد نخص بالذكر منها الوصف المطول لانواع الدواب وطرق سياستها .

أما الموضوع الذي يهمنا أكثر من غيره من حيث معرفة «ادب الكاتب» في ذلك العصر البعيد الذي وضعت فيه الاسس لتطور المدنية وطرق السلطان والادارة في

المملكة العربية الاسلامية - فهو ما يقوله عبد الحميد عن المؤهلات العلمية المطلوبة من الكاتب «وصنوف العلم والادب» التي ينبغي على الكاتب ان يجيدها ، فهي جديرة بذكرها هنا ممبوبة :

أولاً - الدين ، ومنه علم القرآن الكريم والفرائض الدينية .

ثانياً - اللغة العربية ، بما في ذلك الخط .

ثالثاً - الاشعار وغريبها ومعانيها . ويذكر على الهامش انه في ذلك العهد لم يكن النثر موجودا بعد في الاداب العربية .

رابعاً - ايام العرب والعجم ، أي تاريخ الامم . ومن الطبيعي ان عبد الحميد المولي الفارسي المنسب يذكر ايام العجم مع ايام العرب جنباً الى جنب .

خامساً - الحساب وهو ضروري للقيام بوظائف ديوان الخراج ، ونلاحظ ان ديوان الخراج كان اول ما نقل من الدواوين الفارسية واليونانية الى اللغة العربية .

وإذا تساءل المرء الا ينبغي على «الكاتب» أي رئيس ديوان الادارة المدنية في المملكة ان يتقن كذلك القوانين والشرائع فالجواب ان هذا النوع من العلم مدرج في علم الدين والفرائض ، اذ أن «الفرائض» وفقاً للادراكات الاسلامية الكلاسيكية تشمل جميع العبادات والمعاملات أي ما نسميه نحن في عصرنا جميع الحقوق والواجبات والعلاقات الدينية والاجتماعية والعائلية والتجارية .

وإذا اخذنا هذا بعين الاعتبار وجدنا ان «صنوف العلم والادب» المقررة في هذا «المنهاج» تشمل حتماً كل ما ينبغي على الكاتب ان يتقنه أو على الأقل ان يشتمو منه شتموا يكتفي به» كما يقول عبد الحميد في رسالته .

اشتهر بانقائه لعبة الشطرنج ونادم الخليفة المكتفي ثم  
المقتدر وعاش في بغداد وواسط والبصرة حتى توفي سنة  
٣٣٥ (٩٤٦ م) (٥٤) . وقد نشر هذا الكتاب في سنة ١٣٤١  
(١٩٢١ م) بتحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثري بمساعدة  
العلامة العراقي محمود شكري الالوسي ، ويحتوي على  
نصائح لغوية وفنية للكتاب في الدواوين ، وكذلك نصائح  
لسلوكتهم وتفصيل عن شغلهم ووظائفهم . ولعل هذا  
الكتاب اهم مرشد عملي للكتاب في تلك العصور (٥٥) .

ولم نذكر في هذا الصدد اشهر كتاب يحمل عنوان  
**ادب الكاتب** - اعني كتاب المؤرخ والاديب ابن قتيبة  
المتوفي عام ٢٧٦ (٨٨٩ م) ، لان هذا الكتاب يمتاز  
بصنفته الادبية والذوقية ويخلو تقريبا عن العناصر  
العملية التي هي نصاب رسالة عبد الحميد بن يحيى  
والكتب التي ذكرناها .

ومن جهة اخرى لم نذكر هنا اضخم تأليف في فن  
الكتابة ومعرفة الدواوين الا وهو **صبح الاعشى**  
للقشندني ، وذلك لانه متأخر جدا بالنسبة الى  
رسالتنا ، اذ ان مؤلفه توفي في عام ٨٢١ هـ (١٤١٨ م)  
اي بعد وفاة عبد الحميد بن يحيى بـ ٦٥٠ سنة . وقد  
جمع القشندني معارفه التي ادرجها في كتابه من جميع  
المؤلفات التي اثر عليها ، ومن الطبيعي ان توجد بينها  
رسائل عبد الحميد وخصوصا رسالته الى الكتاب .

وهكذا نرى ان رسالة عبد الحميد هي الحلقة الاولى  
في هذه السلسلة الطويلة من الرسائل والمؤلفات ،  
القصيرة منها والمطولة ، التي كرست لموضوع الكتابة  
وفنونها ، وعبد الحميد ان لم يصل الى درجة الكمال في  
هذا الفن فله حق الاولوية في طرق الموضوع واحداث  
البحث فيه وابتداع الاسلوب الملائم له الا وهو اسلوب  
النثر الفني الموضوعي الموجز المفيد :

تعتبر هذه الرسالة اول تأليف من نوعه من حيث  
موضوعها ومضمونها ومقصودها ، وقد صارت قدوة  
ونموذجا لرسائل وكاتب شبيهة بها ألفت بعدها بقرون  
او قرنين ، نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة مؤلفات :

(١) **«رسالة العذراء في موازين البلاغة وادوات الكتابة»**  
المنسوبة الى ابراهيم بن محمد المدبر والتي نشرها محمد  
كرد علي (٥٠) . وقد اشار الاستاذ دومينيك سورديل  
الى ان الارجح ان مؤلف هذه الرسالة هو ابو اليسر  
ابراهيم بن محمد الشيباني فيكون ابن المدبر هو  
الشخص الذي وجهت الرسالة اليه (٥١) . وقد عاش  
الشيباني وابن المدبر في منتصف القرن الثالث الهجري ،  
وكان ابن المدبر مديرا للخارج في جند فامسطين ثم تقلد  
الوزارة سنة ٣٦٣ (= ٨٧٦ م) . ويرى مؤرخ الادب  
العربية المستشرق بروكلمان (٥٢) في هذه الرسالة اول  
محاولة في تاريخ الادب العربية لتحديد ماهية الاسلوب  
الادبي .

(٢) **«كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم وتشريفها»**  
لابي موسى عبد الله بن عبد العزيز الضرير البغدادي ،  
وقد نشر بتحقيق المستشرق سورديل (٥٣) . لا نعرف عن  
حياة البغدادي شيئا الا انه كان معلما لاولاد الخليفة  
المهندي سنة ٣٥٥ (= ٨٦٩ م) ، ثم انتقل الى مصر. وهذه  
الرسالة تتضمن تفاصيل عن ادوات الكتابة ونبد من  
رسائل الكتاب والادباء الاولين كنماذج للاسلوب المفضل  
في نظر المؤلف ، وتشمل كذلك معلومات هامة وطرائف  
ممتعة عن الكتاب وبعض الوزراء ، يحتل عبد الحميد بن  
يحيى بينهم مكانته ، وقد ذكرنا فيما سبق شيئا مما  
ورد في هذه الرسالة .

(٣) **«ادب الكاتب»** لابي بكر بن يحيى الصولي ، الذي

(٥٤) انظر ما يحكيه بروكلمان عن حياته ومؤلفاته :

Brockelmann, GAL (2nd ed.) I 149-50, Supp. I,  
218-19.

(٥٥) انظر

Dom. Sourdel in: Bull. Et. Orient. (Damas) vol. 15  
(1955-57), p. 99.

وانظر كذلك الكتاب الانث الذكر في حاشية (١٦) :

Björkman, Staatskanzlei, p. 11-12.

(٥٠) في مجموعته رسائل البلقاء . الطبعة الثالثة . ص ٢٢٧-٢٥٣ .

(٥١) وذلك بناء على النص الوارد في مخطوطة الاستاذ تيمور كما ذكر

الاستاذ كرد علي في حاشيته في الصفحة ٢٢٧ من مجموعته . انظر

Dom. Sourdel, Le Livre des Secrétaires, Bull. Et.

Orient. (Damas) XIV (1952 54), p. 116, n. 2.

(٥٢) في كتابه تاريخ الادب العربية :

Brockelmann, GAL, Supp. I, p. 152-3.

(٥٣) انظر م . ٣٦ اعلاه .

## نص رسالة عبد الحميد الكاتب «الى الكتاب»

### (أ) تهنئة الكتاب والاشارة الى اهمية مهنة الكتابة

اما بعد ، حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفدكم وأرشدكم ، فان الله جل وعز جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، اصنافا ، وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ؛ فجعلكم معشر الكتاب في أشرفها صناعة ، أهل الادب والمروءة ، والحلم والروية ، وذوى الاخطار والهمم وسعة الذرع في الافضال والصلة: بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ويجمع فيهم ، وتعمر بلادهم . يحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السنني والدني من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم أحد ، ولا يوجد كاف الا منكم ، فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطنون . انتم اذا آلت الامور الى موئلتها ، وصارت الى محاصلها ، ثقاتهم دون اهليهم وأولادهم وقربانهم ونصحائهم ، فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم .

### (ب) خصال الخير والمؤهلات الاخلاقية المطلوبة في الكاتب

وليس أحد من أهل الصناعات كلها احوج السو استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة ، منكم ايها الكتاب ، ان كنتم على ما يأتي به الكتاب من صفتكم ، فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى ان يكون حليما في موضع الحلم ، فقيها في موضع الحكم ، مقداما في موضع الاقدام ، ومحجما في موضع الاحجام ، ليننا في موضع اللين ، شديدا في موضع

الشدة ، مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف ، كنومسا للاسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتي ويسذر ، ويضع الامور في مواضعها . قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه ، فان لم يحكمه شدا منه شدوا يكتفي به ، يكاد يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل امر عدته ، ويهيئ لكل امر أهنته .

### (ج) صنوف الآداب والمؤهلات العلمية المطلوبة في الكاتب

فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والادب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فانها ثقاف السننكم ، واجيدوا الخط ، فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فانه قوام كتاب الخراج منكم .

### (د) ترغيب الكاتب عن المطامع والتكبر ، وواجباته تجاه زملائه

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع ، سنيها ودينيها ، ومساوي الامور ومجاقرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب . ونزهوا صناعتكم ، واربتوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الدناءة والجهالة ؛ وياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلية بغير احنة . وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها ، فانها شيم أهل الفضل والنبيل من سلفكم .

متواضعا حليما ليئا ، وفي استحلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا .

(ز) على الكاتب ان يختبر خلائق صاحبه لتسهل عليه معاملته ومجاورته ، كما يختبر السائس اخلاق دابته

وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلائقه كما يستشف الثوب (٢) يشتره لنفسه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافق من الحسن ، واحتسب لصفه عما لا يوافق (٣) من القبيح ، بألف حيلة ، وأحسن مداراة ورفقة . فقد عرفتم أن سائس البهيمة ، إذا كان حاذقا بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحا (٤) اتقاها من قبل رجلها ، وإن كانت جموحا (٥) لم يهجها إذا ركبها ، وإذا كانت شموسا (٦) توقاها من ناحية يدها ، وإن خاف منها عضاضا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونا (٧) لم يلاحها ، وتتبع هواها في طريقها ، وإن استمرت (٨) عطفها ، فيسئس له قيادها . ومن هذا الوصف من سائس البهيمة ورفق سياسته ، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وصحبهم .

والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره وينظره ، ويفهم عنه ويخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته وتقويم أوده (٩) ، من سائس البهيمة التي لا تحير

- (٢) يقال : استشف الرجل الثوب ، وذلك إذا نشره في الضوء وفتشه ، ليطلب عيبا إن كان فيه .  
(٣) في صبح الاعشى : يهواه  
(٤) الرموح : التي ترفس برجلها .  
(٥) الفرس الجموح : الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء ، ويجرى غالبا راكبه .  
(٦) الفرس الشمووس : الذي لا يمكن احدا من ظهره ولا من الاسراج والالجام .  
(٧) الفرس الحرون : الذي لا يتقاد .  
(٨) استمرت : اشتدت عليه وامتمت .  
(٩) الأود : الاعوجاج .

وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى ترجع اليه حاله ، وان أقعد الكبر أحدكم عسنا مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظفروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته .

(هـ) وجوب الحرص على مصالح الـ «صاحب» وخدمته عن وفاء وصبر في جميع الاحوال

وليكن الرجل منكم ، على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه (١) ، أحذب وأحوط منه على أخيه وولده . فإن عرضت في العمل محمدا فليضفها الى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه . وليحذر السقطة والذلة والملال عند تغير الحال ، فإن العيب اليكم ، معشر الكتاب ، أسرع منه الى المرأة ، وهو لكم أشد منه لها . فقد علمتم ان الرجل منكم قد يصفى الرجل ، إذا صحبه في بدء أمره ، من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته وكتمان سره ، وعفافه وتديبه ، بما هو حري أن يحققه بفعاله ، في غير حين الحاجة الى ذلك منه . فابذلوا ، وفقكم الله ، ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء . فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة .

## (و) وجوب الرفق والعدل تجاه الرعايا

فإذا ولي الرجل منكم ، وصير اليه من أمور خلق الله وعباده أمر فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفيا ، فإن الخلق عباد الله ، وأحبهم اليه أرفقهم بعباده ؛ ثم ليكن بالحق حاكما ، وللأشرف مكرما ومداريا ، وللفيء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا ، وليكن في مجلسه

(١) أي صاحبه وملكه

ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس .

### (ي) وجوب التواضع

ولا يدعون الرجل منكم صنع الله ، تعالى ذكره ، له في أمره ، وتأيبه إياه بتوفيقه ، الى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه ، فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل : ان ذلك الصنع لفضل حيلته ، وأصالة رأيه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضا لان يكله الله الى نفسه ، فيصير منها الى غير كاف . ولا يقل أحد منكم انه آدب وأعقل وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته ، فان أعقل الرجلين ، عند ذوى الالباب ، القائل : ان صاحبه أعقل منه ، وأحمقهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه ، لعجب هذا بنفسه ، ونبد ذاك العجب وراء ظهره ، اذ كان الافة العظمى من آفات عقله ؛ ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه من غير عجب برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكابر على أخيه وكفته ، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته .

### (ك) خاتمة الرسالة

وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل : من يلزم الصحة (١٢) يلزمه العمل (١٣) ؛ وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره ، وختمته به .

تولانا الله وإياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعاده وإرشاده ، فان ذلك اليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(١٢) في رواية : النصيحة . ومعنى المثل : من يقبل النصيحة ويلزمها نجح في عمله .

(١٣) وإذا قبلنا رواية «الصحة» يكون معنى العمل : المنصب ، ويكون معنى المثل : من حرص على الصحة والصدق بقى في منصبه ومكانته .

جوابا ، ولا تعرف خطأ ولا صوابا الا بقدر ما يصيرها اليه سائسها أو صاحبها الراتب لها . فأدقوا - يرحمكم الله - النظر ، وأعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتهم ، بأذن الله ، النبوة والاستئصال والجفوة ، ويصيروا منكم الى الموافقة ، وتصيروا منهم الى المواساة والشفقة ، ان شاء الله .

### (ح) وجوب الامتناع عن الترف والتبذير

ولا يجوزن الرجل منكم ، في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره ، قدر صناعته ؛ فانكم ، مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم ، خدم ، لا تحتلمون في خدمتكم على التقصير ، وخزان وحفظه ، لا يحتمل منكم التصنيع والتبذير ، واستعينوا على عقافكم بالقصد في كل ما عدت عليكم . فنعم العون عونكم على صيانة دينكم ، وحفظ أمانتكم ، وصلاح معاشكم . واحذروا متالف السرف ، وسرف عاقبة الترف ، فانهما يعقبان الفقر ، ويدلان الرقاب ، ويفضحان أهلها ، ولا سيما الكتاب .

### (ط) وجوب الاستدلال بالسوابق والابجاز بالكلام

والامور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتلف (١٠) أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضاعها محجة ، وأرجحها حجة ، وأحمدها عاقبة . واعلموا أن للتدبير آفة وضدا واقعا لا يجتمعان في أحد أبدا ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على انفاذ عمله ورويته . فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي في منطقته ، وليقصد في كلامه ، وليبرز في ابتدائه ، وليأخذ بمجامع حججه حجته ، فان ذلك مصلحة لعقله ، ومجمة (١١) لذهنه ، ومدفعة للشاغل عن آثاره ، وان لم يكن الاكثار عادة ،

(١٠) مؤتلف أعمالكم : ما ستأخذون فيه وتبدؤون .  
(١١) المجمة : الدرجة العليا .